

٤ . في السودان والبحرين والكويت

وقضيت في بور سودان اربعة ايام اتاحت لي فرصة نادوة لاستعراض مشاهداتي في الاسكندرية والقاهرة وقطاع غزة وتلخيصها .

والواقع اني لاحظت أثناء زيارتي القصيرة لمصر ان معظم اليهود المصريين لم يكونوا صهيونيين وأنهم يعطفون على الحركة الصهيونية عطفاً ضئيلاً او لا يعطفون عليها البتة . صحيح انهم يستشعرون شيئاً من امشاركة الوجدانية نحو إخوانهم الراغبين في الفرار من اوروبة ، ولكنهم عاشوا مدة بين العرب جعلتهم يفهمون النعمة التي تعصف في نفوسهم بسبب من إخراج اهل فلسطين من ديار آباءهم واجدادهم تحقيقاً لنزوات بعض الساسة البريطانيين والأميركيين . والحق ان كبير حاخامي مصر ، حايم نحوم افندي ، كان خصماً جريئاً للصهيونية ، يجارها علانية . وكذلك كان كثير من اليهود المصريين الذين كشفوا لي عن اعتقادهم بأن الحركة الصهيونية سوف تنتهي بكارثة تصيب اليهود حيثما وجدوا .

وفي غزة شاهدت صوراً فوتوغرافية لبعض الفطائع البربرية التي

أنزلها الصهيونيون بالعرب رجالاً ونساءً واطفالاً . وكان احد الضباط البريطانيين السابقين يصف لي في حماسة بالغة بعض تلك المشاهد. ولقد سألته ما اذا كان العرب قد ارتكبوا فظائع مماثلة ، فقد بدا لي ان الوحشية تولد الوحشية وان العرب الذين أخرجوا من ديارهم لن يعدموا فرصة للانتقام . فأقررتني الضابط على ذلك قائلاً إن العرب لم يسكتوا على عدوان اليهود . فقد كمنوا للجنود الاسرائيلي ولأفراد عصابة شتون وقطعواهم ارباباً ارباباً بعد ذلك . ثم أضاف : « ولكن العرب أطفال في هذه الشؤون . فهم لا يقتلون في أناةٍ وروية كمن يجد متعة في مجرد القتل ولن تقع عندهم على الوحشية المدروسة المقدرة التي تجدها عند أولئك الصهيونيين . إن ثمة شيئاً غير إنساني في جماعة شتون والأرغون هؤلاء . »

و كنت طلبت الى المسؤولين المصريين ان يعطوني بعض الصور التي تمثل اعمال اليهود الوحشية ، فرفضوا برغم ما أوضحته من ان نشر هذه الصور يفيد قضية العرب كثيراً . لقد أشاروا الى جثث الرجال والنساء والاطفال الممزقة وقالوا : « كيف نستطيع ان نرفع رؤوسنا حين نسمح بنشر هذه المشاهد في بلادك ؟ إنهم إخوتنا وأخواتنا ، ولقد كنا عاجزين عن صيانتهم والدفاع عنهم ! » وحوالي ذلك الوقت وجه بعض اليهود البارزين في نيويورك - وقد روعتهم أنباء مجزرة دير ياسين - رسالةً الى الـ « نيويورك تايمس » موقعة بأعضاء الدكتور آلبرت آينشتين ، جاء فيها :

« ومن الامثلة المؤلمة على ذلك ما اقترفوه [اي افراد عصابة ماناجيم بيجين] في قرية دير ياسين العربية . فهذه القرية البعيدة عن الطارق الرئيسية

والتي تحيط بها الاراضي اليهودية لم تشترك في الحرب ، بل ذهبت الى أبعد من ذلك فصدت بعض العصابات العربية التي أرادت ان تتخذ منها قاعدة لها. ومع هذا فقد هاجمت العصابات الارهابية الصهيونية في ٩ نيسان هذه القرية الآمنة المسالمة ، التي لم تكن هدفاً عسكرياً في القتال - وقتلوا معظم سكانها، وتركوا قليلا منهم على قيد الحياة لكي يستعرضوهم بوصفهم أسرى في شوارع القدس الجديدة .. »

ولقد أذهلت هذه الرسالة كثيراً من العرب : لقد عجزوا عن ان يفهموا هذه الظاهرة : كيف يلفّ الذعر نفراً من اليهود الاميركيين الى حدّ التعبير عن مشاعرهم على صفحات الجرائد ثم يسبحون لانفسهم بأن تسكتهم تهديدات الصهيونيين الاميركيين ؟ وكان من العسير عليّ ، بعض الشيء ، ان اشرح لهم الوضع ، ولكن كان ثمة اشياء كثيرة استعصت على التفسير آنذاك ، ولم يكن اقلها خطراً جبن الصحافة الاميركية واستخذاؤها . ولقد غدا أساسياً ان اوضح لهم ان المزاحمة العنيفة بين الصحف احوالها الى مشروعات تجارية اكثر منها مؤسسات انشئت لخدمة الجمهور ، وان تلك المشروعات التجارية كانت تعتمد على الاعلانات التي تردها من الشركات والمحال التجارية الكبرى . ومن هنا كانت دائرة الاعلانات في الصحيفة الاميركية هي التي تسيطر على سياستها في كل ما يتصل باليهود والصهيونيين ، وبذلك انتهت الصحف الى ان تصبح مجرد قواديات لاولئك المعلنين . فكان من نتائج هذا أن الخبر الصحيح غير المفروض لا يمكن نشره في الصحف الاميركية الا اذا خلا بما يؤذي المعلنين او يسيء الى مصالحهم .

وفي سنة ١٩٤٨ كان همّ السودانيين الأكبر الطعام والحرية . وكان رجال الادارة البريطانية - الذين اطلق عليهم السودانيون الظرفاء تهكماً ، اسم « الآلهة » - قد سعوا الى ان يمكّنوا لنفوذهم الفعلي في البلاد من طريق إدخال الشيوخ السودانيين في الحكومة بوصفهم قضاة ثانويين وجباة ضرائب . واذ كان هؤلاء الشيوخ يتقاضون نسبة مئوية من الغرامات التي يفرضون والضرائب التي يجمعون فقد نشطوا في اداء المهمة الموكولة اليهم في نشاط بالغ كانت ثمرته الاخيرة في تلك الاراضي الجرداء ، انتشار الجماعية السرمدية . وبدلاً من الطعام كان في السودان محصول من القطن 'فرض على السكان لتغذية مصانع مانشستر البريطانية . ومن هنا اخذت النعمة تجتاح السودانيين ، وشرع الجائعون منهم يقرون الى شبه الجزيرة العربية رجاء أن يجدوا من يشتريهم ويتخذ منهم عبيداً أرقاء . في حين خاض المثقفون منهم غمار السياسة كوسيلة لانتزاع الحرية التي يتسوا من الحصول عليها - من طريق التدخل المصري والتي أدر كوا الآن أن عليهم أن ينتزعوها من المحتل بأنفسهم . ولم يكن في بور سودان ما يساعدهم كثيراً . كانت سكة الحديد تتحدر من الكشبان المحيطة بالخرطوم ، وكانت ثمة بلدة صغيرة قاحلة في وسطها حديقة عامة أشد صفراً ، وبناء حكومي ضخم وثكنات ترفرف عليها الاعلام البريطانية والمصرية . وباستثناء بعض الجنود المصريين من ذوي الرتب الدنيا لم تقع عيني على احد من المصريين . أما الموظفون البريطانيون فكانوا كثيرين ، ولم يكن عندهم شيء ، يقولونه .

واخيراً امتطيت متن الـ « سيلفر ستار » من جديد، فانطلقت
بي في البحر الاحمر الى الحديدية و«نخا اليمينيتين» ومنها الى باب المندب
(باب الجحيم) ، فمحمية عدن و«عمان» في اتجاه الخليج الفارسي .
حتى اذا بلغنا مضيق هرمرز - وهرمرز هو آله الشمس ، وقد
خلع اسمه على المدينة القديمة التي كانت في وقت ما مفتاح الخليج
الفارسي - شاهدنا قافلة طويلة من ناقلات الزيت قادمة من مختلف
موانئ البترول - عبادان ، والبحرين ، والبصرة ، والكويت ،
ورأس التنورة - و«متجهة» الى مختلف موانئ العالم الضمأى الى
الزيت . ونادراً ما كانت تمر لحظة من لحظات الليل او النهار
من غير ان تسطع فيها أضواء ناقلات الزيت الماضية في سبيلها .
وكانت الرايات التي ترفعها تلك الناقلات تشير الى انها تنسب الى
دول شتى .

وليس في ميسورنا ، من الناحية الجيولوجية ، ان نعتبر الخليج
الفارسي مياهاً صالحةً للملاحة ، لأن سفن الأثقال العميقة لا تطمن
الى سلامتها ، إلا في وسطه . من اجل ذلك تضطر سفن المحيط
العالمية الى ان تبقى ضمن نطاق الحدود الضيقة نسبياً للمياه العميقة ،
او الى ان تتخبط على محاذة البر في الطين الذي يتصدر شيئاً بعد
شيء الى شواطئ بلاد العرب ويران المقابلة . وهذه الضحولة هي
احد الاسباب التي تجعل الحرارة في الخليج الفارسي مرتفعة الى حد
لا يطاق . والواقع ان الحرارة والرطوبة تكونان هناك ، في اشهر
الصيف ، قائلتين او تكادان . فنادراً ما يهبط الميزان الى ما دون
الدرجة المئة فهرنهايت ، حتى في الليل . وقد سُجلت الحرارة في

الرمل فبلغت ١٦٥ درجة في فترة الأصيل المبكرة . وحتى في كانون الأول كانت الشمس حاميةً على الرغم من أن خط العرض الذي يقع عليه الخليج يراوح ما بين ٢٥ و ٣٠ درجة الى الشمال من خط الاستواء .

وغربي مضيق هرمز وعلى طول شواطئ بلاد العرب الشمالية الشرقية يقع ما يعرف بالمشيخات المهادية ، كما يُعرف الساحل نفسه بالساحل المهادين . وإنما تبدأ قصة ذلك منذ تلك الايام التي وجد فيها شيوخ العرب ان السفن التجارية الهندية المثقلة بالذهب ذات إغراء لا يتاوم . فكانت زوارقهم تعترض هذه الكنوز العائمة ، لينطلق منها العرب ملوحين بسيوفهم اللامعة ، مقنعين البحارة بأن يساعدهم على التخفيف من اعباء السفينة العاملة على خط التجارة الهندية الشرقية . وطوال بضعة عقود من الزمان وجد شيوخ الجزيرة العربية في ذلك تزجيةً لأوقات الفراغ فيها متعة وفيها فائدة .

بيد ان بريطانية لم تجد في ذلك متعةً ما . فدعي اسطول صاحب الجلالة الى التدخل . وفي سنة ١٨١٠ انطلقت حملة عسكرية من بومباي فغزت عُمان وقذفت بنيران مدافعها عدداً من الموانئ العربية ، حتى « دُخان » في قَطْر الحالية . وبذلك أدبت بريطانية تسع مشيخات عربية ، وصار في ميسور شركة الهند الشرقية البريطانية ، سنة ١٨٢٠ ، ان تطمئن الى سلامة أغني البواخير وابطأها فيها هي تجوز خياشيم بلاد العرب الشمالية الشرقية ، المرتعشة . ولكن البريطانيين لم يقنعوا بذلك . فما كان منهم الا

ان اقنعوا الشيوخ في نوار ١٨٥٣ بتوقيع «معاهدة سلم سرمدية» ،
ثم جعلوا من الخليج الفارسي منطقة محكومة لهم من طريق
«الاتفاقية المانعة» Exclusive Agreement في آذار سنة ١٨٩٢
وانتقدت هذه الوثيقة شيوخ الساحل المهادن - كما كان يُعرف
آنذاك - بأن يرفضوا كل عرض من عروض الصداقة تتقدم به
أيما دولة أخرى .

ومن ذلك الحين غدا سلطان البريطانيين على جزائر ومشيخات
شبه الجزيرة العربية الواقعة في الخليج الفارسي أو على ضفافه ،
كاملاً مطلقاً . وفي سنة ١٩١٤ عندما لمس الانكليز ان الدبلوماسية
الألمانية تعتزم اكتساب الخليج الى جانبها وجهوا بعثة الى الكويت
وسعوا ، في شيء من الاكراه ، الى اغراء شيخها الحاكم بأن يربط
مستقبل مملكته الصغيرة بمستقبل بريطانيا .

واليوم تغص هذه المشيخات المهادنة بالمناطق الغنية بالبتروول
والمستدة من قطر الى رأس الخليج حيث تعد آبار الزيت
الكويتية هذ الدولة الصغيرة بازدهار دونه ازدهار اي من
الدول العربية . وليس لقطر من الثروة النفطية مثل ما
للكويت ، ولكن في «دخان» يعبر خط اللاتايب قاع الخليج
الضحل الى مصافي البحرين ، ويتقاضى شيخ قطر عائداته من
غير ان يكلف نفسه عناء تكرير النفط محلياً . وفي البحرين حل
الزيت محل «اللؤلؤ» واصداق اللؤلؤ كمورد يومي .

والقت الـ سيلفر ستار ، مراسيها اول ما القتها في البحرين .
واذ كنت أحمل سمة امبراطورية من مكتب الجوازات البريطاني

في نيويورك فقد اعتقدتُ أنني لن أجد أيًا صعوبة في النزول إلى البوٲ ،
هناك . و كنتُ على خطأ ، ولكنني لم اكتشف خطأي هذا الا
بعد ايام ثلاثة . و رست الـ « سيلفر ستار » وسط مجموعة من السفن
ترفع الاعلام الاميركية والبريطانية والبانامية . وكان الميناء على
شكل T ، واكثرها T مكسورة الجذع لأن الميناء يتصل عند
منتصف الطريق الى الشاطيء تقريباً - وعلى زاوية مائة الى
العرب - بمجاز ضيق يشكل الحلقة الأخيرة في مدى الثمانية ايام
المتدة من شعاع رأس الميناء الأفقي الى اليابسة . وإنما ينتهي
المجاز بالطريق الى المنامة عاصمة المشيخة والى اليمين تقوم تلك
الشبكة الضخمة المعقدة العصرية الى ابعد الحدود من أساطين المصافي
وأنايبها ذوات الزوايا . وعلى مسيرة ميل واحد الى الراء تمتد
الطريق عبر مقبرة ترجع الى العهد الفينيقي لما يرونها الباحثون
بعد ، قبل ان يصل المرء الى المسجد الأموي الراقي الى القرن
الثامن . والمنامة بلدة صغيرة موحلة تغص بالمعدمين ذوي العيون
المريضة ، والثياب الممزقة ، والاجساد الجائعة

ويحسن بي ان أنص منذ البدء على أنني هبطت ارض البحرين من
غير ترخيص رسمي . فالحق أنني كنت طوال تطواني في البلدة
خارجاً على القانون ، وكان في ميسور السلطة ان تلقي القبض
عليّ وتلقي بي في السجن . ولكن الحظ كان حليفي .
وكانت الامطار تهطل في المنامة ، والطرق غير معبدة .
وكانت السيارات التي تدرع الشوارع ذهاباً واياباً تفرق السابلة
بمياه الشوارع ووحولها . وكانت البغال الطويلة المليحة المجلوبة من

الأحساء تقوم مقام الجمال والحير في البحرين ، وكان سائقوها المتباهون - اللابسون عادةً سترات عسكرية بريطانية بالية وقبعات خاكية مزقة - أكثر اهتماماً وأشد رفقاً بالمساكين عابري السبيل .

وعلى الجملة ، فبرغم ان فقرهم بدا أكثر تطرفاً في هذه الارض الغنية من فقر السودانين في ديارهم الجرداء كان عرب البحرين مبتهجين غير متشكين . حتى الشحاذون كانت الابتسامة تظل ايديهم المبسوطة التماساً للعطاء . وكان العمال الحاملون صفائح الزيت على متن الـ « سيلفر ستار » ينفقون فرصة الغداء راقصين على انغام المزمارة الحزينة المُنْعَوْلَة ، مكشزين واثين لكي يُغفروا الناظر اليهم بالابتسام . وانما كانوا يفعلون ذلك تسلياً لانفسهم عن المتاع او لعلمهم كانوا يقصدون به الى ادخال الدفء على قلوبهم ، اذ لم تكن تعقب الرقص محاولة الى جمع النقود على الرغم من استمتاع ركاب السفينة وملاحيها جميعاً بالمشهد .

وقال ربان الـ « سيلفر ستار » إنه لن يسمح بالهبوط انى اليابسة لغير الذين كانت البحرين هي طبيعتهم ومقصدهم . حتى اذا سألناه عن السبب في ذلك اجاب انه أمرٌ صادر من مستشار الشيخ الممثل لحكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وهو رجل يدعي المستر بيلي D. C. Pelly . وكان مستر بيلي هذا يضيق الخناق على الامير كين بعد ان عاث ملاحو إحدى ناقلات الزيت الامير كية فساداً ذات يوم في المنامة وافلخوا راحة السكان بعربدتهم الصاخبة . ومن ذلك الحين قامت سياسته على هذا المبدأ : « يحظر السماح للامير كين

بالنزول الى اليابسة . »

وحاولت ان اقصد الى الميناء واتصل بمقرّ مستر بيلى تلفونياً .
وبعد جهد ، ردّ عليّ سكرتيره سائلاً إياي عما أبتغي . فقلت إني
صحافي ، وإني احمل سمّة بريطانية . فهاله ذلك في ما يخيل اليّ ،
ولكنه أخفى انفعاله وكرر القول بأن من المحظور عليّ ان اهبط
اليابسة . ثم انه فكر ثانية او ثابنتين واقترح عليّ أن اتصل
بمستر براون ، ممثل شركة « بابكو » في المنامة . وكذلك فعلت .
وقال مستر براون انه يمثل الشركة فعلاً ، وانه يرغب في أن يساعديني
على مغادرة السفينة ، ولكنه بريطاني ، وهو يكتن الاحترام
البريطاني لمن في يده مقاليد السلطة . وهكذا ابدى مستر براون
« أسفه » ، واقترح عليّ أن اتصل بمستر كيرني Kearney ممثل
شركة « آرامكو » . و « شركة النفط العربية الاميركية » شركة
اميركية ، في حين ان « شركة نبط البحرين » يسيطر عليها البريطانيون
برغم ان شركة « ستاندرد اويل أوف كاليفورنيا » و « شركة
تكساس » تملكان فيها ، من الوجهة النظرية ، نصيباً مماثلاً لنصيب
البريطانيين . ومن هنا رجوت أن يسعفتني مستر كيرني . ولكن
رجائي ما عثم ان خاب . لقد تحدث اليّ الرجل في ثقة وبروح
من التشجيع ، ولكنها كانت ثقة ديبلوماسية ، وتشجيعاً
ديبلوماسياً . وقال لي انه سيدرس المسألة ويتصل بي . بيد انه
لم يفعل شيئاً من ذلك قط !

وكذلك سلخت يومين اثنين أسيراً على متن السفينة ، فكنت
أرى الى ناقلات الزيت ، من مختلف الهويات والجنسيات ، تُشدّ الى الميناء

فتروي ظمأها الى البترول ثم تمضي لسبيلها . كانت السفن الحربية الاميركية التابعة « لأسطول البحر الابيض المتوسط » تفد التماساً لاستهلاكها الذاتي من الوقود ، في حين كانت ناقلات الزيت التابعة للاسطول الاميركي تحمل أثقالاً من النفط للبوارج الحربية المرابطة في مالطة واستانبول وأثينا . وذات يوم وفد على الـ « سيلفر ستار » شيخ ثانوي من شيوخ الأحساء ليقيم بصفقة ما مع ربانها . وكان في ميسوره ان يتكلم الانكليزية بعض الشيء ، فأحاله الربان عليّ اعتقاداً منه ان الشيخ قادرٌ على « تهريبي » الى اليابسة . أو هذا ما خيل اليّ على الاقل ، بالرغم من انه ليس ينبغي لي ان أعزو هذه الفكرة الاجرامية الى الربان . فلعلّ دوافعه ان تكون على غاية من البراءة .

وعلى اية حال ، فقد كان الشيخ معنياً الى ابعد الحدود بمجمهورية باناما . حتى اذا سأله عن ذلك قال إنها دولة بحرية ضخمة . فذهلت لقوله ذلك ، وذهل هو بدوره لذهولي . فقد كان الامر واضحاً بالنسبة اليه ، لأن نصف السفن المشدودة اتي الميناء كانت تحمل راية باناما على سواربها ، ونجمة « كالتكس » الحمراء على مداخنها . وحاولت ان اشرح الاشياء للشيخ . فقلت له إن شركات النقل البحري الاميركية - رغبة منها في اجتناب الاجور المرتفعة وغيرها من التبعات الثقيلة التي يفرضها القانون البحري الاميركي - تضطر احياناً الى ان تسجل بواخرها لدى دولة صديقة تكون قوانينها أقلّ صرامة . وأصاخ الشيخ ، وأحسب أنه قد فهمني . ولكنه لم يستطع ان يفهم لماذا يتعين على شركة ما ان تلجأ الى هذه

الاجراءات كلها . وتساءل لم لا توضح الشركة هذه الامور
للحكومة وعندئذ تعدد الحكومة الى تيسير القوانين ، وهكذا
تتاح للشركة فرصة العمل على نحو مشروع في ظل الراية الاميركية .
ولم أعقب على هذه النقطة بشيء ، فقد كانت ثمة اشياء لا يمكن
شرحها .

وكان الذي يهمني ، آنذاك ، أن التقي نظرةً على تلك القبور
الفينيقية والمسجد الاموي . وأسرتُ للشيخ بالمصاعب التي تكتنفي
فتأثر أبلغ التأثر . وقال إنه سوف ييسر لي سبيل النزول الى البر ،
وكان سائق سيارته يعرف المنامة كما يعرف وجه عباته . وقد
وعدني بأن تعود بي السيارة الى السفينة عقب انتهاء الزيارة ، مؤكداً
أن التدير الذي انخذه مستر بيبي ينطوي على بلاهة لا تقلّ عن
بلاهة القوانين الاميركية التي تجعل من المتعذر على الاميركيين
تسيير سفنهم بريح حسن .

وكانت سيارة الشيخ من طراز « بويك » ، وكان سائقها
بارعاً . وفي حذر هبطت رُكن التلفون فيما كان الشيخ يودع
الربان والضابط الأول . حتى اذا تهادى الشيخ العربي النحيل
بكوفيته البيضاء ، وعقاله الصوفي الاسود ، هابطاً في ابهة وجلال
المجاز الموصل ما بين السفينة والبر ، لحقتُ به . وكانت سيارة
« بويك » مفزغاً مترفاً ، فجلست في المقعد الخلفي مع الشيخ
وانطلق بنا السائق نحو البلدة .

واجتزنا المقبرة والمسجد في طريقنا الى العاصمة . وعلى الرغم من
اني ، لحسن الطالع ، لم احتجّ او اذمر فقد اخذني شيء من القلق .

لم يساورني الخوف من ان أختطف ، ولكنني تساءلت هل قد فهم الشيخ ما أبتغي فهماً صحيحاً وأدرك ان رغبتني قاصرة على زيارة المنامة دون المضي عبر المجاز الخاص بالسيارات الى الاحساء على ساحل شبه الجزيرة العربية .

ولكن الشيخ كان ارق حاشيةً بما كنت احسب . فقد وقفت السيارة بنا - أول ما وقفت - عند احدي الدكاكين ، وترجل السائق منها مزوداً بالمال والتعلبات ، وما هي إلا دقائق حتى عاد حاملاً كوفية اخرى شبيهة بتلك التي تغطي رأس الشيخ ، وعقالاً . وقال الشيخ إن غطاء الرأس هذا خلقت به ان يكون تمويهاً واقياً ، فاذا ما رأني رجل من شرطة بيبي أطوف في المسجد او في المقبرة الفينيقية خالني عالماً عربياً وتركني وشأني . ونجح التدبير أحسن نجاح . وقضيت في المنامة يومين كاملين (بعد ان أقبلت سيارة الشيخ لتقلني في اليوم التالي) وغمرتني السعادة ، لا لأني وقفت آخره الأمر الى زيارة المقبرة الفينيقية والمسجد الاموي فحسب ، بل لاني فقت مستر بيبي في فن المناورة والكر والفر !

والكويت تصغير كوت ، او قلعة ، ولقد صانت « القلعة الصغيرة » مؤخر الخليج الفارسي هذا طوال قرون ، وجائز ان تكون قد صانته طوال آلاف من السنين . والواقع ان الاقتراب الى المدينة المسورة من المرفأ الفخم الرائع ينقل المشاهد القهقري الى عهد سرجون الاول والحضارة العربية الزاهرة في « أكد » . ولا شك في ان « أور » الكلدانية قد تاجرت مع الكويت ، وان السفن الآتية من البصرة كانت تشق طريقها في عسر عند مدخل

جدار البحر القديم الضيق كما فعلت سفينتنا اليوم ، محتكة بجوانبه
الحشنة فيما كانت تغادر لجج المرفأ المتلاطم الأمواج التماساً للأمن
والسلامة خلف الجدار البحري . وهناك كانت بقايا اسطول اللؤلؤ
والمراكب التجارية التي كانت تقوم برحلات يومية الى العراق ، على
مبعدة اربعين ميلاً بحرياً . ذلك بأن الكويت كانت ، كالبحرين ،
مشيخة ينهض اقتصادها على اللؤلؤ ، وهي اليوم . كالبحرين ايضاً ،
أرض قوام حياتها الاقتصادية البترول .

وكان من حسن طالعي ان ارى الكويت وهي لا تزال
جزءاً من شبه الجزيرة العربية . ففي مستهل الحرب العالمية
الثانية تعطل تطور التسهيلات النفطية في الكويت ، ولم
يُستأنف إلا سنة ١٩٤٧ . وبعد عام واحد كانت معدات شركة
نفط الكويت تعمل في «البوقان» وجبل «واره» و «الاحمدي» .
وكانت شركة بكنل الدولية Inter. Bechtel Inc. تنشيء
حرفاً وحوض سفن في الخليج الذي يقع قرب الاحمدي . وجندت
مؤسسة إ. ب. بادجر E. B. Badger البوسطنية جيشاً بكامله
من الرسامين وواضعي التصاميم للعمل في البلاد . وشرعت
مؤسسة ويمبي اللندنية في تشييد بناء مكثبي جديد متعدد الادوار
في سوق المدينة . ومع ذلك فقد كانت الكويت لا تزال في شبه
جزيرة العرب . ففي مدينة الكويت كان المرء يرتد ، في مثل
نكسة المرض ، الى القرون الوسطى . كانت ثمة تلك الشوارع
المتعرجة الضيقة التي تحيط بها البيوت العربية ذات الدور الواحد
مجداتها المسورة ، وجوانبها المطلية بالكلس ، ونوافذها الضيقة

المقنطرة . وهناك تقوم الدكاكين التي تباع النفائس من اوروبية
 وشرقية وسجاجيد الصلاة الفاخرة والطرف النحاسية العربية .
 وانما بنيت الكويت في محاذاة الجزء الداخلي من اسوارها
 الترابية اللون ذات الفتحات التي تطلق منها النار . ههنا كانت
 المنازل والدكاكين . وفي الوسط ، عبر القصر والباب الرئيسي
 المنفضي الى الصحراء ، كانت رقعة الارض الواسعة التي ينهض فيها
 خان (فندق) القوافل والميدان . وهنا كان ويمي وشركاؤه
 يشيدون صرح « مصرف ايران » . وههنا كانت خطوط التلفون
 تمتد من قطب مؤصلٍ راسخ الى زاوية من زوايا البناية فتبدو
 في غير موضعها وكأنها في فيلم « كو فاديس » * Quo Vadis
 وكانت الابواب تغلق عندما يهبط الليل خشية ان يتسلل الى
 المكان بعض الغزاة من نجد او من الاحساء ، ولكن وراء تلك
 الابواب مطاراً تستخدمه الطائرات الاميركية العاملة في الخليج
 الفارسي . ومن خلال كل شيء ، تستروح عبق الجزيرة العربية :
 القهوة والتبغ القوي ذي النكهة الطيبة ، ورائحة لحم الضأن
 المطبوخ الشهية ، والزعفران ، والارز ، وعبير حبّ الهال وماء
 الورد وأحياناً رائحة الموت الكريمة المطوّفة في الأجواء . ووراء
 الأسوار ، بين البلدة والمطار ، كانت تلقى القاذورات ، وتطرح
 جيف الحمير والكلاب والجمال لتصبح طعاماً للطير .

* رواية وضعها ساينكيوايز Sienkiewicz (١٨٩٥) وتجرى حوادثها
 في عهد نيرون مصورة ما لقيه المسيحيون الاولون من عظيم الاضطهاد والتعذيب .
 وقد اخرجت على الشاشة السينمائية .
 [المغرب]

وقرع ناقوس يُنذر بتغيير يوشك أن يقع ، ناقوس ذو طابع
 شخصي أكثر من خطوط التلفون بما لا يُقاس . وإنما كانت
 الـ « سيلفر ستار » هي حاملة هذا النذير : شحنة من ثلاثين سيارة
 طراز كروزلي . ولقد خيل إليّ حين بصرتُ بها ، عبرَ الميدان
 من بناية ويمبي الهيكلية ، انّمة اجتماعاً سياسياً . كان المكاتب
 يغصّ بالعرب المهتاجين المتبسمين الذين يومنون بأصابعهم ههنا
 وههناك ، ويفحصون الموتورات في كثير من العناية بعد أن رُفعت
 أعطيتها . وفجأةً قلت لنفسي : من هنا ستبدأ نهاية العربي وجواده ،
 وتزول صورة رومانتيكية أخرى الى الأبد . فها هم أبناء الصحراء في
 زيهم البدوي الكامل ، من الكوفيات السمراء والعقالات السوداء ،
 الى العباءات الحشنة السمراء والصنادل المزركشة بالالوان الزاهية .
 وها هي عدةٌ من سيارات كروزلي الصغيرة غير العملية في طرق
 شبه الجزيرة العربية الرملية بسببٍ من عجالاتها الصغيرة ، تسترقّ
 أهل الكويت وتستعبدهم . ولقد أخبرني مستورد البضاعة - وهو
 عربيّ سوري - أنه تلقى طلباتٍ تستنفد الشحنة كلها ، وأن في
 ميسوره أن يبيع أيّ مقدار من السيارات تبعث اليه الشركة به .
 وأحسبُ أنه على صواب . فلم يبقَ ثمة كبير شك في أن يوم
 الفرس في شبه الجزيرة العربية قد انتهى . فالملك عهد العزيز
 ابن سعود لم يمتطِ صهوة جواده ما منذ عشرات السنين ، ولكن
 عنده اسطولاٌ ممتازاً من سيارات « كاديلاك » المذهبة الحواشي ،
 البالغة الطول ، والمجهزة بمواقف خاصة لأعداد القهوة وثلاجات
 تزوّد الراكبين بشراب ماء الورد المثلج فيما تنطلق السيارة بهم في

عرض الصحراء .

ولقد حدثني ابن عم شيخ الكويت ، وهو أسود البشرة يحسن الكلام بعدة لغات وقد تلقى علومه في جامعة بيروت الاميركية ، عن أثر السيارة في تنوير * الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة فقال : « ألا ترى اني حين انطلق اليوم للصيد لا اضطنع بازياً ولكن بندقية ؟ اني اصطحب اربع شاحنات واربع سيارات لبس غير ، فأصل ورفاقي الى مواطن القنص في يومين اثنين . اما في الايام الحالية فكنا نصطحب مئة بعير او مئتين ، الى جانب اربعين فرساً في بعض الاحيان ، ثم لا نصل الى مواطن القنص حيث نصيد الطيور والغزلان الا بعد ثلاثة اسابيع . وكذلك نأخذ معنا في هذه الايام ، احياناً ، الشاحنة الضخمة التي تُقلّ المولد الكهربائي لكي ننير الخيام ، وندير وحدة التبريد السريع حيث نضع اللحم . »

اجل ليس ثمة ريب في ان السيارة قد غزت شبه جزيرة العرب ، ولكن ما الذي سيحلّ بالجواد ؟ لقد قيل ان الجواد عضو في البيت العربي اكثر منه وسيلة من وسائل المواصلات ، وها هي ذي كلمات هذا الشيخ الداكن الى حد بعيد ، المنتمي الى الاسرة الحاكمة في الكويت ، تبدو وكأنها تستأصل استئصالاً كاملاً معالم الجواد النبيل باستثناء كونه موضوعاً للتباهي اللّسبي ، طبعاً . وأحب ان انص ههنا بين معترضتين ، على أن العربي لا يعجب لأن يرى زنجياً على رأس الاسرة . فوراثة الزعامة القبلية

* Revolutionizing .

ووراثة المشيخة حق من حقوق الولد البكر بصرف النظر عن أمه . فإذا ما ولد ابن الأمة قبل ابن الحر أو الزوجة البيضاء فعندئذ يرث الزنجي الزعامة دون أخيه .

والواقع أن ولي العهد ، في هذه الحالة ، وهو الولد البكر لعمّ الشيخ الحالي ، قد لا يرقى العرش بسبب من بعض التعقيدات الوراثية التي سببها سائر أعضاء الأسرة الحاكمة . ولكنّ مردّد ذلك أن يكون بأية حال إلى لونه الداكن . وحتى الملك عبد الله تزوج ، في ما يقال ، أمة سوداء من أصل سوداني أو صومالي . ذلك بأن المسلمين جميعاً سواسية في عين الله بصرف النظر عن لون بشرتهم . ولعل المسلمين هم أكثر شعوب الأرض تسامحاً نحو أهل الأديان الكتابية الثلاثة على الأقل : الإسلام والنصرانية واليهودية . أما الآن فقد تغير الموقف بالنسبة إلى الدين الثالث بعد أن غدت الصهيونية خطراً يتهدد الشرق الأوسط . وطوال تاريخ الكويت القديم ظلت مشكلة مياه الشفة من غير حل . وحتى وقت قريب عندما أمر الشيخ بتشيد مصفاة لتحويل مياه البحر إلى مياه صالحة للشرب كان أهل الكويت يستوردون ماء الشفة من العراق . وإلى أن بدأت الـ « كوك » K.O.C (شركة نفط الكويت) تبعث بزيتها إلى البصرة كانت المياه تحمل من شط العرب وتباع لأهل الكويت في ظروف من جلد الماعز ندية لامعة ، وكان السقاة ، السمر المتجعّدو الوجوه الحفاة يطوفون بالماء في الشوارع المعبرة ، مطنطين للنظامين باكوابهم المعدنية المتراكب بعضها فوق بعض طنطنة موسيقية ، صابّين مياههم السكرية الملوّنة في لباقة واقتصاد من

الظروف الجلدية ذوات الصمام .

وفي سنة ١٩٤٧ ، عندما تدفق البترول من جديد على وجه الصحراء لم تكن اسباب الحزن الالائمة متوفرة فعمد اتفاق مع شركة نفط البصرة يقضي بأن تخزن هي نفط الكويت الى ان تنشأ الصهاريج الخاصة به . وفي الوقت نفسه ادعى تدفق الموظفين البريطانيين والاميركيين الاخصائيين في النفط ، على البلاد ، الى جانب مستخدمي شركة بكتل الدولية (I. B. I) ومؤسسة بادجر وغيرهم من عابري السبيل الاوروبيين والاميركيين الى نشوء أزمة في هذا السائل الحيوي — أزمة زادها حدة فقدان الجمعة والمشروبات الروحية وما إليها . واخيراً اقترح بعضهم أن يُفرد في كلِّ من ناقلات النفط القاصدة الى البصرة حوضٌ خاصٌ بالماء وضروب الشراب . وهكذا حلَّت الأزمة في الحال ، عندما القت سفينتان اميركيتان مراسيهما في مياه الكويت وأفرغتا من جوفيهما آلافاً من صناديق الجمعة . وما هي الا ايام حتى استشعر الغربيون من نزلاء الكويت أنهم بلغوا نقطة الارتواء أو التشبُّع .

ونقمة قليلٌ من الماء ، طبعاً ، على مبعده ثلاثين ميلاً من البلدة أو نحوها ، ولكنه أجاج مالح ليس يصلح للشرب . وهو ممتاز لتزويد آلات الحفر . والانايب تنقله عبر الصحراء ، كما تنقل جميع السوائل (عدا مياه الشفة) من مكان الى مكان في شبه الجزيرة العربية . فيصل الى تلال « البرقان » حاراً ، ذارائحاً ، ينبعث منه البخار في ساعات النهار ، وبارداً ذارائحاً في ساعات الليل . وفي كانون الاول من عام ١٩٤٨ كانت الكويت باردة جداً

آثناء الليل وعند الصباح الباكر . أما في خلال النهار فكانت الحرارة ترتفع الى درجة تضطر المرء الى تكييف الهواء . وفي شهر آب تبلغ الحرارة في الكويت مبلغاً مخيفاً . ولقد سُجّلت مرةً في الرمل فبلغت ١٦٥ درجة فهرنهايت . ومن حسن الطالع ان حرارة الهواء دون ذلك وإلا لنعلى عمال النفط في ملابسهم كما تغلي القدر على النار . ومع ذلك فالحرارة مرتفعة الى حدّ لا يكاد يطاق ، حدّ يجعل الانكايذ التابعين لشركة نفط الكويت يضيّقون ذراعاً باكوأخهم المبنية من صفائح الحديد المتغضن كلما فكروا في المستخدمين التابعين لشركة بكتل الدولية (J.B.I) في بيوتهم ونواديبهم المترفة المكيفة الهواء .

وتعتبر الـ « آي . بي . آي » بأنها تحيط موظفيها بكل ما ينسبهم أنهم غرباء ، عن الوطن . لقد شيدت نادياً رحباً ينتظم صالةً لعرض الافلام السينمائية ، ومطعماً يقدم الى زبائنه شرائح لحم البقر المعروفة بشرائح همبورغ والنقانق الحارة والكوكاكولا والقهوة الاميركية ، ومخلف الاغاني والمقطوعات الموسيقية المسجلة وضروب ألعاب التسلية والمقامرة . وفي المطعم ، كانت الألوان كلها هي ألوان « الغرب الاوسط » . * Middle West ، وفيها شرائح لحم البقر ، والبطاطا المقلية ، واللوبياء الخضراء ، واللوبياء الفرنسية ، والحُبز المُعدّ في الوطن ، والزبدة الطازجة ، والحللات

* اقليم في الولايات المتحدة يحده من الشرق جبال « آليجيني » ومن الغرب جبال « روكيز » ، ومن الجنوب نهر اوهيو والاطراف الجنوبية من ولايتي ميسوري وكنساس . [المغرب]

على اختلاف ظروفها ، والشاي المثلج ، والقهوة المثابجة ، وصنوف
الفاطائر الطازجة . لقد كنتُ ضيفاً هناك ، ولقد بدت شبه الجزيرة
بعيدةً عن ناظريّ ، بعيدةً جداً .

وكان جيم والترز ، وهو اميركي ، يتولى إدارة شركة نفط
الكويت بالوكالة . ومنه عرفتُ ان الشركة تملكها مباحةً
مؤسستان اثنتان هما شركة النفط الانكلو ايرانية وشركة نفط
الخليج الاميركية . ولعلّ ثروة آبار النفط الكويتي ضعفتُ ثروة
آبار النفط الايراني ، على الرغم من صغر مساحة المشيخة نسبياً .
ولولا مصافي عبادان الكبرى - وهي اضخم مصافي البترول في
العالم كله - لكانت شركة النفط الانكلو ايرانية خليقةً بأن
تستغني عن حقول الزيت الفارسية التي تكتنفها المتاعب وتكتفي
بمحقول الكويت .

ولقد حكم الشيخ أحمد آل جابر الصباح ، الحاكم الحالي ، الكويت
منذ عام ١٩٢١ عندما ورث العرش عن الشيخ التاسع من شيوخ
الاسرة الصباحية التي رقيت العرش حوالى منتصف القرن الثامن عشر .
والكويت كالبحرين ، موضوع نزاع بين العراق وايران على
اعتبار ان كلا من الدولتين قدّر لها ان تبسط سلطانها ، في فترة
من فترات التاريخ ، على جزائر الخليج وسواحلها . وكذلك تدعي
تركيا حقوقاً هناك ، للسبب نفسه ، على الرغم من ان مثل هذه
الدعوى تبدو واهنة تافهة بعد ان انحسر الحكم التركي عن شبه
الجزيرة العربية .

وانما يبني العراق دعواه على اساس من ان تلك الجزر خضعت

لسيطرة بابل قرونًا عديدة من الزمان . أما إيران فتبني دعواها على أساس من أن الجزر كانت تابعة لها في عهد الامبراطورية الساسانية . صحيح أن أياً من الدولتين لن تتنازع الاخرى نزاعاً مسلحاً على هذه المنطقة ، ولكن من الراهن ان بغداد وطهران غدنا اليوم اكثر اهتماماً بها ، وبخاصة بعد أن حل "الزيت محل" اللؤلؤ بوصفه مصدراً أول للثروة في تلك الديار . وبحسبك ان تعلم أن شيخ الكويت حصل منذ قريب على ٧،٠٠٠،٠٠٠ دولار مقابل توقيعه على الامتياز الممنوح لـ « شركة نفط الكويت » .

وبرغم ذلك كله كانت الكويت لا تزال في القرون الوسطى أو آخر عام ١٩٤٨ . كان التجار يتركون ابواب حوانيتهم مشرعة (ولم تكن لكثير من الدكاكين أقفال على الاطلاق) عندما يغادرونها الى البيت ، في فترة الأصيل ، ابتغاء الاستمتاع بالقبولة . لم يكن ثمة بارات أو حانات أو كاباريهات . وفي السوق كان التجار يتركون اكداساً صغيرة من الليرات الذهبية الانكليزية والذيرات المنقوش عليها صورة ماريا تيريزا ثمناً للخضر التي تحمل اليهم في الصباح الباكر من المناطق الاكثر خصباً القائمة على طول الساحل او عبر الخليج ، حتى اذا أقبل بائعو الخضر اخذوا نصيبهم العادل منها وتركوا الباقي على مقاعد التجار او مناضدهم .

لقد تغير كل ذلك ، اليوم . فسيارات الجيب المطققة تتمايل في الشوارع الضيقة مشتمة قوافل الجمير والجمال . والحانات والبارات تنشأ وتنطلق منها الموسيقى المدوية . وتغيرت الدكاكين أيضاً ، فظهرت على ابوابها أقفال من نوع « ييل » بعد الزيارات الاولى

التي قام بها العمال في آبار النفط الى المدينة ، وُهجرت عادة ترك
الذهب على مناخذ الدكاكين هجراناً مفاجئاً . لقد غزت الحضارة
الكويت ، وان ينقضي طويل وقت حتى تحتل زوايا الشوارع فيها
الكاباريات وحالات رقص البطن ...

وكانت السماء قد اخذت تمطر عندما غادرت الـ « سيلفر ستار »
مرفأ الكويت في الليلة الاخيرة من العام ، على نغمات الانخاب
والكؤوس المترعة بالخمر السويدية . فما ان أفقت من سباتي صباح اليوم
الاول من كانون الثاني ١٩٤٩ حتى وجدت نفسي لا في عام جديد
فحسب ، بل في حقبة من التاريخ جديدة . ذلك بأن العراق ،
على الرغم من أنه يغصّ او يكاد بالآثار القديمة ، هو دولةٌ عصرية .